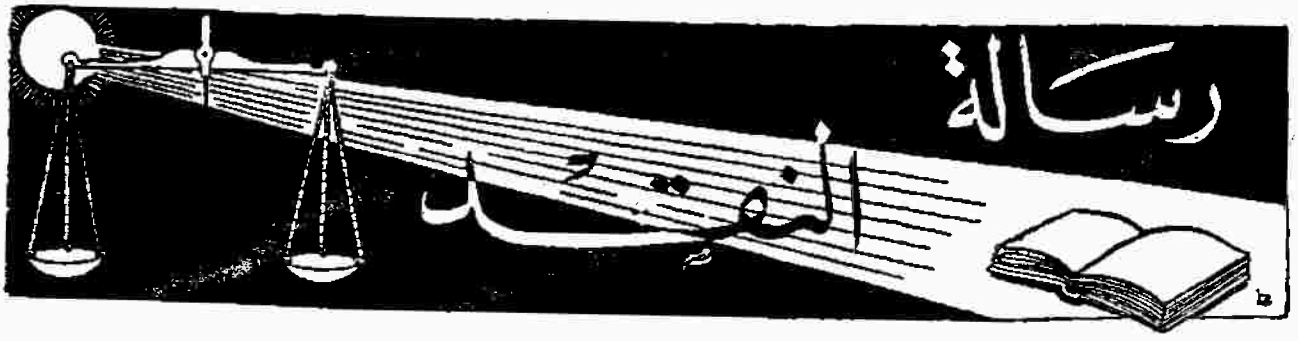


# فصل المقال

## فيما دار من نقاش حول « مباحث عربية »

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

— ٢ —

أما عن التلبيس فى سوق الروايات والواقعات فى كتاب « مباحث عربية » فإليك بعض من ذلك :

١ — أسند الدكتور بشر فارس ص ٦٠ من كتابه «مباحث عربية » ثمانى روايات جلة إلى ١٦ مرجعا منها أربعة مراجع

---

ولسوف نستخدم ما نملك من وسائل فى بث الفضائل وتدعيم الروح القوى النبيل ، وفى تهذيب الذوق العام بتشجيع الفن الصحيح والدنو به من الكمال وتعويد الناس فهم الجمال . وعند ذاك ترقى النفوس والعقول ويتم للشعب بلوغ ما نصبو إليه من مرتبة عالية بين الشعوب الراقية المجيدة

إن هذه الوزارة لا يمكن أن يقوم موظفوها وحدهم بكل العبء . هنالك دعامة قوية من الدعائم التى ترتكز عليها دائماً أعمال الإصلاح ، هذه الدعامة القوية هى التطوع . بثوا الدعوة معنا إلى الزملاء فى شتى أوساط الشعب لإيجاد المتطوعين للاصلاح نحن فى حاجة إلى تجنيد أكبر عدد من المتطوعين للاصلاح

**أحمد عرابى**

اضطررنا لقطع سلسلة البحث فى تاريخ عرابى نظراً للظروف الحاضرة ؛ وسنعود إلى وصلها فى الوقت المناسب

وابتداء من العدد القادم سندرس شخصية مازينى أحد أبطال الحرية فى التاريخ الحديث

الخفيف

مخطوطة ؛ والغرض من ذلك الوصول إلى إثبات أن «التعريف» الحقيقى الناهض على التميز للفظ المروءة غير ممكن ، وليصل إلى هذا فقد ساق الدكتور بشر هذه الروايات جنباً إلى جنب، وأسندها جملة إلى مصادرها بالجملة للتعجيز ، حتى لا ينظر القارئ مصادر كل رواية ويقدر معانيها فى مكانها ووجه مجيئها من الكلام . لأن فى ذلك الخطر كل الخطر على البحث إذ يثبت أن الروايات تأتى فى كلها لفظة « المروءة » من أصل واحد يحمل مدلول السيادة من جهة ويتضمن السجايا الرفيعة التى يتقوم بها شخص السيد . بيان ذلك :

( ا ) يقول النورى : « المروءة بذل الهدى ، وكف الأذى ، وترك الهوى ، والزهد فى الدنيا ، وطاعة المولى » ، وهذه الرواية بهذا الإطلاق يتنافر فيها مفاد المروءة مع المدلول الحقيق للفظة وهذا ما يريد أن يصل إليه الدكتور بشر ، وهذا هو التلبيس لأن هذه الرواية لو أسندت إلى مصدرها ، وهو مخطوط كتاب « الفتوة » للأردبيلى — أيا صوفيا ٢٠٤٩ — وهو مخطوط فى التصوف كما وصف ذلك الأستاذ F. Iaeschner فى مبحثه المنون باسم Der Anteil des Sufismus an der Formung Futuwasaideals والمنشور بمجلة Der Islam التى تصدر عن هيدورج ، م ٢٤ ص ٥٨ ، لظهر أن لفظة المروءة فى هذه الرواية تأخذ مفادها من وجهة المتصوفة ، وفى ذلك الوقت يتسق مفاد اللفظة فى الرواية مع مدلول الكلمة الناهض على التميز

هذا وقد نبهنى أحد الزملاء إلى أن هذا المخطوط الذى وردت فيه الرواية ، نشره الدكتور بشر فى مقتطف ابريل سنة ١٩٣٩ والعجيب أن يقول فى التقدمة . « تدخل الفتوة على قلم الأردبيلى فى التصوف ، وكذلك المروءة التى هى شعبة من شعبها فى كتاب الأردبيلى ! »

(ب) يقول معاوية : « المروءة احتمال الجريرة وإصلاح أمر

العشيرة » فهذه الرواية رغم أنها تحمل فى طياتها إشارة إلى سجايا السيد وإفادتها سياسة الملك ، فقد أتى بها بشر فارس ليستدل على أن مدلول لفظة المروءة غير ناهض على التمييز . وهو فى الوقت نفسه يذكر ص٦٧ فى الحاشية ، فى الهامش رقم ٣٤ هذه الرواية ، والمتن يحمل الإشارة إلى أن الرواية مفادها سياسة الملك !

(ج) يقول عمر بن الخطاب : « تعلموا العربية فإنها تزيد من المروءة». ويقول مسلمة بن عبد الملك : « مروءتان ظاهرتان : الرياسة والفصاحة » . والدكتور بشر لا ينكر فى الرواية الثانية أن لفظة المروءة تنزع إلى السيادة ، مع أنها تجىء من الفصاحة وإذن فمفاد الرواية الأولى واضح فى إشارتها إلى السيادة وسجايا السيد ، من حيث أن العربى كان يرى معرفة العربية سبيل الفصاحة والفصاحة من أسباب الكمال والكمال من متطلبات سجايا السيد

(د) فى عام ١٩٣٢ أخرج الأستاذ بشر فارس كتاباً بالفرنسية اسمه « العرض عند عرب الجاهلية » وتقدم به لينال إجازة الدكتوراه من جامعة باريس . وموضوع هذه الأطروحة أن « أخلاق عرب الجاهلية تتدرج تحت معنى العرض » (أنظر L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam باريس١٩٣٢ ص ٣٢ وما بعدها) . ولما كان جولد تسيهير Goldziher أحد شيوخ الاستشراق قد كتب فى كتابه Muhammedanische Studien طبع Halle سنة ١٨٨٩ ج ١ ص ١ — ٤٠ ـ فصلاً كاملاً عن المروءة ذهب فيه إلى أن « المروءة كانت تنزل منزلة الفضيلة Virtus عند عرب الجاهلية » . وهو فى هذا على نقيض من الرأى الذى ذهب إليه الدكتور بشر ، فقد اضطر صاحبنا بشر أن يعود عام ١٩٣٧ ليناقش رأى جولد تسيهير لأنه صاحب رأى خاص فى الموضوع فكتب مادة « مروءة » فى تكملة دائرة المعارف الإسلامية ، ثم توسع بالمادة فكان منها موضوع مبحث المروءة من كتاب « مباحث عربية » وهو يشغل الصفحات من ٥٧ — ٧٤ ، وهو إلى هذا الحد لم يرتكب وزراً ، ولكن موضع المؤاخذة جاء من جهة محاولة إيهام القارىء أن بحثه فى المروءة ليس عن فكرة سابقة a priori ، وإنما هو نتيجة التدبر والتدرج من الواقعات للنظر ( كما يقول ص ٧٣ من كتابه ) ، وهو لكى يصل للغرض يوهم القارىء — والإيهام ليس بالشىء القليل — ثم يعمد لطرق ملتوية لتعجيز القارىء حتى لا يكشف كيف يميل بالواقعات ويديرها منحرفة عن حقيقتها بعض الشىء حتى يتحصل له من انحرافاتها النتيجة المقصودة . وقد سبقت الإشارة إلى بعض طرق الالتواء فى بحثه ، وإليك طرقا أخرى :

(ا) لو كانت المروءة واضحة المعنى ما عثرنا على تعريفات لها لا يكاد يقع بعضها على بعض ، ولا أصبنا أقوالاً فيها ربما تنافرت بل تدافعت . وبهذه الجملة يلج البحث الدكتور بشر فارس . والذى عندى أن اختلاف التعريف إن جاء من عبارات يقصد بها بيان كيفية المروءة ، فذلك لا يقع على بعض مدلول لفظة المروءة . بيان ذلك أن لفظة الرجولة لعهدنا هذا واضحة المعنى ، ومدلولها ناهض على التمييز ، ولكن كل إنسان حسب طبيعته وأخلاقه وسجاياه ونظرته يعطى اللفظة لوناً يقع على كيفيتها من جهة الصفات لا على مدلولها الذى يدل على المعنى . ومن المهم فى تدبر المعنى الحقيقى réelle للفظ ملاحظة هذه الاعتبارات . والآن على ضوء هذا الكلام لننظر فى مبحث الدكتور بشر فارس

أولاً — يأخذ الدكتور بشر قول أبى الحاتم البستى : « اختلف الناس فى كيفية المروءة » (روضة العقلاء ص ٢٠٧) دليلاً على تضارب التعريفات والأقوال حول لفظة المروءة . والرواية تقصر عما يريد صاحبنا بشر أن يحملها، لأن كلام أبى الحاتم البستى يقع على الصفات لا على المعنى ، والمعنى اختلاف الناس فى كيفية المروءة لا فى مدلولها

ثانياً : يستدل الدكتور بشر من سؤال معاوية : « ما تعدون المروءة؟ » على أن معنى المروءة (أو مدلولها) أشكل على المسلمين. والاستدلال خطأ ، لأن السؤال يقع على ما كان يعدونه ، وعد الشىء مربوط بكيفيته (أو صفاته) ، فالصوفى يعد المروءة مثلاً : « ترك الهوى والزهد فى الدنيا وطاعة المولى » ، ورجل الدنيا يعدها « كثرة المال والولد » . فهذه الدلالات للفظة المروءة تقع على الكيفية منها لا المدلول

ثالثاً : نفى الدكتور بشر أن المروءة تفيد معنى السيادة قائلاً ما ملخصه : « إن الاستناد إلى مشتقات مادة ( م ر ء ) ولا سيما اسم الفاعل منها فى الآرامية لإثبات إفادة المروءة للسيادة خطأ ، لأن لفظة مروءة عربياً وهى اللفظة الناظرة إلى اللفظ الآرامى إنما مفادها الإنسان . وهذا يدفع أن تكون المروءة أفادت السيادة أول الأمر » هذا وهو يدفع القول ، بأن باب المروءة وقع فى كتاب السؤدد من عيون الأخبار لابن قتيبة ، بأن المصدر

المذكور لم يثبت غير قول واحد تنزع فيه المروءة لمعنى السيادة

والردّ عندنا أن الدكتور بشر ذكر فى موضع آخر من كتابه أن المروءة تدرج مقرونة بالسؤدد من كتاب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب . . . (رقم ٤٠٩ مخطوط ليدن ص ٥٣٢ — ٥٣٤ ع ٢٩٧ من الرسالة) والدكتور بشر يقول فى تقدمة هذا المخطوط : (وفى المصدر الأول تعريفات وأقوال فى المروءة على أنها لون من ألوان السيادة وشرط من أشراطها) الرسالة العدد ٢٩٧ ص ٥٣٣ . أما عن مجىء هذه الروايات من الجاهلية أو عدم مجيئها ، فلا يؤثر على القضية فى شىء ، لأن جلها أتى من صدر الإسلام ، والعربية لم تتغاير فلا معنى للاحتجاج بأنها ليست من الجاهلية . وإذن يبقى معنا لفظة المروءة نازعة منزع السيادة فى الجاهلية وصدر الإسلام ، بعكس ما حاول أن يوهم القارئ بطرق ملتوية الدكتور بشر فى مباحثه العربية

رابعاً : ينكر الدكتور بشر فارس أن المروءة أفادت السيادة — وأكبر الظن عنده — أنها ضمت ، أو ماضمت محاسن خلق بالإنسان ، ثم — من طريق التجديد والمجاز — محاسن خلقه » وهو فى رأيه هذا لا يذكر السبب الذى جعله يميل مع هذا الظن . فضلاً عن أنه لا يستند فى ظنه هذا إلى أكثر من فصل مخطوط تحت رقم ٢٠٤٩ بأيا صوفيا ، يشتق فيها المؤلف المجهول المروءة من مرء الطعام وامرأة ، وإذا تخصص بالمرئ لموافقته للطبع . فكأنها اسم الأخلاق والأفعال التى تقبلها النفوس السليمة ، فعلى هذا يكون اسماً للأفعال المستحسنة كالإنسانية ، وهذا الرأى من الكاتب أحد رأيين ثانيهما أنه يجعل المروءة من المرء فيجعلها اسماً للمحاسن التى يختص بها الرجل فيكون كالرجولية ، ولست أدرى ما الذى جعل الدكتور بشر يميل مع الرأى الأول ؟! وليس فى بحثه ما يرجح الرأى الذى أخذ به إلا قول بل أكبر الظن ! »

خامساً : يرى الدكتور بشر أن الأقوال والروايات التى ورد فيها لفظة المروءة ، فيها جانبان متضادان كلاهما معقود على الآخر : الأول حسى والآخر معنوى ، وهذا غلاب على ذاك ؛ وهو يذهب إلى : « أن الجانب الحسى ينحدر من زمن الجاهلية وأما الجانب المعنوى فمصدره الإسلام » (ص ٦٣ من مباحث عربية) غير أنه لا يثبت على هذا الرأى سريعاً فلا يلبث أن ينقضه ويقول : « وكأن الحسىّ والمعنوى أخذا يتجاذبان المروءة أيام الجاهلية » (ص ٦٥ من مباحث عربية) ، وهو بهذا يخلع الجانب المعنوى على الجاهلية . وفى هذا التضارب والتناقض ما فيه مما لا يحتاج إلى بيان ...

سادساً : يعتمد الدكتور بشر على رواية الأغانى : « أن عيينة ابن مرداس كان معوزاً فقصد إلى عبد الله بن عباس يسترفده ويرغب إليه أن يعينه على مروءته . فردّه ابن عباس لاتهامه إياه فى مروءته » ليصل إلى أن المروءة كانت تجىء معنوية من العصر الإسلامى وحسية من الجاهلية ؛ وهو يعلق على هذه النتيجة بقوله : « إن ابن عباس نظر إلى المروءة بعين المسلم فنزهها عن المادة وأنزلها منزلة الخلق الحسن . وابن مرداس نظر إليها بعين الجاهلى فرأى فيها إعانة له حتى لا يشتهى طعام غيره »

والرد أن الرواية لا تسعف الدكتور بشر بالنتيجة التى أراد أن يحصلها ، لأنه لا يتحصل منها أن ابن عباس نظر إلى المروءة بعينى المسلم ، وإنما الصحيح أن يقال إنه نظر إليها من طبيعته ، كذلك لم ينظر إليها ابن مرداس بعين الجاهلى ، وإنما الصحيح أنه نظر إليها من طبيعته ، والفرق بين النظرتين ، كالفرق بين الطبيعتين ، وهذا الاختلاف فى النظر راجع إلى اختلاف النفوس لا إلى اختلاف الزمان ، ومن أمثال الذين ينظرون نظرة ابن مرداس للمروءة كثيرون فى كل زمان ومكان !.

سابعاً — مضى الدكتور بشر فى بحثه ، وكأنه يتعقب روايات مختلفة من أزمان مختلفة ، وأعطى المروءة مفادات مختلفة ، كل مفاد خاص بعصر ، وانتهى ببحثه إلى أنها لم تنزل منزلة الفضيلة على جهة المماثلة إلا فى العصور المتأخرة . والرأى الصحيح فى الموضوع أن الروايات التى أتى بها الدكتور بشر فارس متسقة وكل منها تقع على لون خاص من مدلول المروءة ، وهذا اللون مرتبط بالناحية الكيفية (صور) للفظة . وهى من هنا لا تأخذ دليلاً على التطور التاريخى . والأصل فى البحث اللغوى لتاريخ لفظة أن يكون الباحث صاحب نظرة فلسفية تتغلغل فى صفحات الماضى وتستمد من طبيعة الحالات القائمة فى العصر صورة تقيمها فى ذهنها يمحص على أساسها الباحث الروايات التى تعرض له ويكشف ، عن مقدار تأثرها بحالات العصر ، وهل هى راجعة لاختلاف النفوس والطبائع ، أم إلى اختلاف الزمان ، وذلك لا يتأتى إلا عن طريق النفوذ من مادة الرواية وهو الجسم المنظور إلى روحها وهو ما وراء المنظور

[ البقية فى ذيل الصفحة التالية ]